في فلسفة الامامة الدينية ومنطق الاجتماع المعرفي الديني

أ.د. الشيخ محمد شقير
أستاذ الاسلاميات/كلية الدراسات الاسلامية
الجامعة الاسلامية في بيروت

السؤال المطروح في هذا البحث هو: هل من الواجب وجود مرجعية دينية بعد رسول الله (ص) تقوم بدور بيان الدين ورفع الاختلاف في دلالات الكتاب وتأويله، بحيث يكون قولها القول الفصل وبيانها البيان الذي يعبّر عن حقيقة الدين ومعاني الكتاب، فلا يكون اخبارها عن اجتهاد قد يصيب وقد يخطئ، بل يكون عن علم الهي لا يعتريه الخطأ؛ أم انه ليس من الواجب وجود هكذا مرجعية دينية، وانه لا ضرورة لاستمرار مهمة بيان الدين والكتاب بعد وفاة رسول الله (ص)؟

يوجد جوابان على هذا السؤال:

الجواب الأول: يذهب الى ان الدين قد أكمل في حياة الرسول (ص)؛ وانه يكفينا كتاب الله تعالى وما وصلنا من سنة الرسول (ص)؛ وأما ما لا نجد له جواباً في الكتاب والسنة فنلجأ فيه الى أدوات منهجية أخرى –كالقياس وغيره– لملء ذلك الفراغ؛ وعليه لا حاجة الى تلك المرجعية الدينية لبيان حقيقة الدين.

الجواب الثاني: ويذهب الى أن الدين قد أكمل؛ ولكن بيان الدين يحتاج بشكل دائم الى وجود عالم بحقيقة الدين وحقيقة الكتاب، فيكون عنده علم الكتاب، وتكون وظيفته بيان حقائق الدين، والتعبير المصيب عن الكتاب، ورفع الاختلاف فيه، والهداية الى الله تعالى من خلال بيان المعارف الحقّة للدين، ومواجهة المعارف الباطلة التي قد تنسب اليه، ويكون بمثابة المرجعية الدينية التي تتولى المحافظة على الدين وحقائقه، والعمل على رفع الاختلاف عن مضامينه ومعارفه.

وهنا سوف نتناول أهم الأدلة التي يستفاد منها ضرورة وجود هكذا مرجعية بعد رسول الله (ص)، تتولى تلك الوظائف التي لها علاقة بالمعرفة الدينية.

الدليل الأول: بيان الدين، أي بيان الكتاب ومعارفه، على أن يكون هذا البيان بياناً مظهراً لحقيقة الكتاب ومعارفه الحقّة، لا أن يكون عن اجتهاد قد يصيب وقد يخطئ، والا اذا كان عن هذا الاجتهاد، فقد يحصل أن يعمل الناس بكثير من الاجتهادات، وتكون هذه الاجتهادات مجافية في نتائجها لحقيقة الدين، ومفارقة في مضمونها لواقع الكتاب، مما يؤدي الى تضييع الكثير من المصالح وفي مختلف الميادين والتي تترتب على العمل بالمعرفة الحقة بالدين والدراية الصحيحة بالكتاب. وليس من الحكمة بمكان أن ينزل الله تعالى الكتاب، ولا يوجد الوسيلة التي تتيح بشكل دائم الوصول الى معارفه الحقة ومضامينه الصحيحة.

ان الله تعالى انزل الكتاب "تبياناً لكل شيء"[1]، وفيه "تفصيل كل شيء"[2]. ولذلك كانت معارفه لا تنضب وحقائقه لا تجف، فهو "...بحر لا ينزفه المستنزفون، وعيون لا ينضبها الماتحون، ومناهل لا يغيضها الواردون.."[3]. فلا يمكن أن نصل الى زمان تنتهي فيه معارف القرآن، ولا يصح القول ان البيان قد استنفذ جميع ما في الكتاب، أو انه لم يبق شيء في الكتاب الا وقد بُيّن، بل ان القرآن بحرٌ لا يدرك قعره ولا تجف معانيه، ولا يمكن أن يستنزفه البيان ما كرّ الجديدان، "...لأن الله تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان، ولا لناس دون ناس، فهو في كل زمان جديد، وعند كل قوم غضٌّ الى يوم القيامة"[4].

وعندما نعود الى الكتاب، اما ان تكون هذه العودة بطريقة توصل دائماً الى ما هو حق وصواب، أو بطريقة نخلط فيها الحق بالباطل والصحيح بالسقيم؛ وليس من الحكمة بمكان أن ينزل الله تعالى علينا الكتاب، ولا يعطينا الوسيلة التي تمكننا دائماً من الوصول الى معارفه الحقّة ومضامينه الصحيحة. وبالتالي لا بد من المبيّن الذي لديه القدرة على البيان الحق، الذي لا يشوبه خطأ ولا خطل، ليكون من الراسخين في العلم الذين لديهم علم التأويل ومعرفة التنزيل، ومن أهل الذكر الذين ينبغي للجاهل أن يعود اليهم، ولقد كان رسول الله (ص) يبين للناس الكتاب في حياته. يقول تعالى: "انزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم"[5]، حيث كان الرسول (ص) يبين للناس في حياته ما يحتاجون اليه من بيان، لكن من هو المبيّن بعد رسول الله؟

فهل نستطيع القول ان معارف الكتاب ومضامينه قد نضبت. أم هل يمكن القول ان حاجتنا الى كتاب الله تعالى قد انتفت؟ فاذا لم تكن معاني الكتاب قد نضبت، ولا ان حاجتنا اليه قد انتفت؟ فمن هو المبين الذي

---

[1] سورة النحل، الآية 89.
[2] سورة يوسف، الآية 111.
[3] الامام علي (ع)، نهج البلاغة، ط1، بيروت، دار المرتضى، 2002م، الخطبة 198، ص 315-316.
[4] في جواب الامام الصادق (ع) لما سئل: ما بال القرآن لا يزداد على النشر والدرس الا غضاضة؛ الريشهري، ميزان الحكمة، ج6، ص 2519.
[5] سورة النحل، الآية 44.

يجب أن نهتدي ببيانه بعد رسول الله (ص)؟ يقول تعالى : "انما انت منذر ولكل قوم هاد"[1] فاذا كان الرسول هو المنذر، وكان من الواجب أن تستمر الهداية لكل قوم، فمن هو الهادي بعد رسول الله (ص) الى المعاني المتضمّنة في كتاب الله تعالى، والكامنة في اغواره ولججه؟ ام هل يصح القول ان حكمة الله تعالى قد استلزمت ان يكون الرسول (ص) هو المبين للقرآن الكريم في حياته، لكنه بعد الرسول (ص) لا حاجة الى المبين والبيان؟

ان الحكمة التي استلزمت ان يكون الرسول (ص) هو المبين لكتاب الله تعالى في حياته؛ هي نفسها تستلزم أن يكون هناك هادٍ الى معاني الكتاب ومبيّن له بعد وفاته، لأن الحاجة الى البيان دائمة والى المعرفة الحق قائمة، بل ان الحكمة التي اقتضت تحديد من هو المبيّن وتعريفه للناس قبل وفاة الرسول (ص) – وهو الرسول نفسه–؛ هي نفسها تقتضي تحديده وتعريفه للناس بعد وفاة الرسول (ص).

كما ان هذه الهداية لا يمكن أن تكون الا الى ما هو حق من الكتاب وصواب من معانيه، أي لا بد لهذا الهادي أن يكون قد أمدّه الله تعالى من لدنه بعلم الكتاب؛ يقول تعالى في كتابه الكريم: "قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب"[2]. فالذي عنده علم الكتاب هو الهادي الى معانيه، والمبين لمعارفه بعد رسول الله (ص)، فمن هو الذي حكى عنه الله تعالى في كتابه بأن عنده علم الكتاب؟

انه ينبغي أن يكون المعبّر عن كتاب الله تعالى شخص يبيّن حقائقه ويظهر معارفه، بل يكون بنفسه القرآن الناطق[3]، يقول تعالى "**بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم**"[4]، أي ان حقيقة القرآن الكريم انه آيات واضحات في صدور من أوتوا العلم. فعندما يُسكن الله تعالى آياته صدور قوم آتاهم العلم، يصبحون قرآناً ناطقاً وبياناً صادقاً، لا ينطقون الا بحقائق الكتاب، ولا يعبّرون الا عن معانيه الحقة ومعارفه الصحيحة.

ان مؤدى ما تقدّم هو ضرورة وجود مرجعية دينية بعد رسول الله (ص)، تتولى استمرار بيان الدين والكتاب، بحيث لا تنقطع الهداية الى حقائق الدين ومعاني الكتاب بموت رسول الله (ص)، بل يتولاها أئمة أعطاهم الله تعالى العلم، ومنحهم القدرة على الهداية. يقول الله تعالى "وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا"[5]، فاذا كانت وظيفة

---

[1] سورة الرعد، الآية 7؛ روي أنه لما نزلت هذه الآية "انما انت منذر ولكل قوم هاد"، وضع رسول الله (ص) يده على صدره، وقال: أنا المنذر، وأومأ بيده الى منكب علي (ع) فقال : أنت الهادي، يا علي بك يهتدي المهتدون من بعدي (الحنفي علي محمد فتح الدين، فلك النجاة، ط2، لندن، مؤسسة دار الاسلام، 1997م، ص 168).

[2] سورة الرعد، الآية 43؛ وقد ذكر أكثر المفسرين ان المراد بمن عنده علم الكتاب هو الامام علي (ع) (فلك النجاة، م.س.)

[3] في معركة صفين وعندما رفعت المصاحف على الرماح وارتفعت الأصوات (لا حكم الا لله)، اجابهم الامام علي (ع) : "انا القرآن الناطق"؛ القندوزي، ينابيع المودة لذوي القربة، تح سيد علي الحسيني، ط1، دار الأسوة، 1416 هـ ق، ج1، ص 191.

[4] سورة العنكبوت، الآية 49.

[5] سورة الأنبياء، الآية 73.

الامامة الهداية، وكانت الهداية لا تنقطع "ولكل قوم هاد"[1]، فلا بد اذن من أن تستمر الامامة الهادية الى حقائق الكتاب والمعاني الحقة للدين، تلك الامامة التي منحها الله تعالى علماً لدنياً غير كسبي، أي ان الله تعالى قد أعطى أولئك الأئمة الهادين علماً لا يطيش سهمه ولا يخطئ راميه. يقول تعالى "وعلمناه من لدنا علماً"[2]. أي أن الله تعالى منحه من عنده علماً خاصاً، لا يشوبه خطأ ولا يخالطه جهل.

الدليل الثاني: الاختلاف في الدين، وهو يرتبط من حيث مضمونه بالدليل الأول، لكن البحث هنا من حيث امكانية وقوع الاختلاف في تفسير القرآن، حيث ان الله تعالى ينزل الكتاب لرفع الاختلاف، يقول تعالى "وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه"[3]، والذي يحصل أن الاختلاف يقع في الكتاب نفسه، في فهمه وتفسيره وتأويله، يقول تعالى: "ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه"[4]، فيكون مع الكتاب من "عنده علم الكتاب"[5] ليوصل الناس الى العلم الحق بالكتاب، حتى اذا حصل الاختلاف بعده، فلا يكون بسبب نقص في العلم أو تقصير في البيان، بل يكون لأسباب أخرى، يقول تعالى: "وما اختلف الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم"[6].

ان الحكمة الالهية تتمثّل في أن يسهم الكتاب في الوصول الى العلم، وهو لا يوصل الى العلم الا من خلال معبّر عنه، عالم به، يكون عِدلاً للقرآن[7]، بل يكون القرآن الناطق[8] الذي يورث بيانه العلم بالدين، ويميّز –عن علم– الصحيح من السقيم، والحق من الباطل، حيث لا تغلبه الأهواء ولا يضلّه الجهل؛ حتى اذا وقع الاختلاف بعد في الكتاب، فلا يكون عن نقص في العلم أو البيان، وانما يكون بسبب آخر هو البغي.

وهذا العلم لا يحصل الا من خلال العودة الى أهل الذكر "فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون"[9]، والنهل من الراسخين في العلم: "وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم"[10] الذين لديهم علم الكتاب ومعرفة تنزيله

---

[1] سورة الرعد، الآية 7.
[2] سورة الكهف، الآية 65.
[3] سورة آل عمران، الآية 19.
[4] سورة هود، الآية 110.
[5] سورة الرعد، الآية 43.
[6] سورة آل عمران، الآية 19.
[7] عن رسول الله (ص): "اني تارك فيكم ما ان تمسكتم به لن تظلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما" (سنن الترمذي، ج5، ص663، الحديث رقم 3788)
[8] في هذا المرد يذكر عبد الرحمن الشرقاوي في كتابه (علي امام المتقين) قصة طريفة حين عاد ابن عباس بمجموعة من الخوارج الى الكوفة بعد أن حاورهم وأقنعهم بالعودة، فيذكر الشرقاوي: "وأذن مؤذن على ألا يدخل على أمير المؤمنين رجل الا رجلاً حمل القرآن، فجاءه القراء الخوارج الذين عاد بهم ابن عباس، فلما امتلأ بهم الجامع والرحبة أمامه، دعا أمير المؤمنين بمصحف ضخم فلما وضعوه أمامه قال: "أيها المصحف حدّث الناس!" فقالوا له: يا أمير المؤمنين!انما هو مداد في ورق، ونحن نتكلم بما رُوينا منه.." (ط1، بيروت، مؤسسة الوفاء، 1985م، ص158)؛ ومن هنا كانت الحاجة الى قرآن ناطق يحدث الناس ويبيّن لهم حقائق القرآن الكريم، وقد أكّد الامام علي (ع) كثيراً على هذا المعنى. يقول (ع):" هذا القرآن انما هو خط مستور بين الدفتين لا ينطق بلسان، ولا بد له من ترجمان، وانما ينطق عنه الرجال" (منهج البلاغة، م.س، ص 216)؛ ويقول (ع): "ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطق، ولكن أخبركم عنه" (نهج البلاغة، م.س.، ص 268)
[9] سورة النحل، الآية 43.
[10] سورة آل عمران، الآية 7.

وتأويله. فمن هم يا ترى أهل الذكر ومن هم الراسخون في العلم، أم هل يصح أن يحدثنا الله تعالى عنهم ولا يدلنا عليهم ويرشدنا اليهم؟

ان القرآن الكريم هو المصدر الأول للدين والشريعة لدى جميع المسلمين؛ ومع وقوع الاختلاف بين المسلمين، ترى ان كلاً منهم يستدل بالقرآن الكريم على نهجه وفهمه وأحكامه، لترى فهماً مختلفاً وأحكاماً متناقضة، وكل يدّعي أنه قد أخذ من القرآن الكريم، وعمل بأحكامه. فتجد على سبيل المثال أن آية واحدة من القرآن الكريم هي آية الوضوء، كلّ قد فهم منها طريقة في الوضوء، فترى المسلمين يتوضأ كل منهم بطريقة تختلف عن الآخر، رغم أن الآية واحدة، ونصّها واحد، ورسمها واحد، ولفظها واحد، بل قد لا تجد آية من آيات القرآن لم يقع فيها الاختلاف في الفهم، ولم يتشعّب فيها الرأي في التفسير أو التأويل. رغم أن الرب واحد، والقرآن واحد، والرسول واحد؛ فهل يريد الله تعالى منا الاختلاف فأوقعنا فيه؟ أم انه أوجد أسبابه وتركنا نتخبط في أفهامنا المختلفة، عندما أمرنا بالتمسك بكتابه ولم يحدّد لنا من نلجأ اليه لحسم الخلاف في فهم الكتاب، ومن نعود اليه لتمييز الصحيح من السقيم في تفسيره وتأويله!!!

هل يعقل أن ينزل الله تعالى الينا الكتاب، ولا يدلنا على من لديه العلم به، ومن لديه القدرة على حسم الخلاف في فهمه؟ هل يجوز أن يعرض الله تعالى في كتابه الى من لديه علم الكتاب ولا يرشدنا اليه؟ هل يصح أن يأمرنا تعالى بسؤال أهل الذكر دون أن يدلنا عليهم؟ هل من الحكمة أن يحدثنا الله تعالى عن الراسخين في العلم دون أن يعرفنا بهم؟ هل من المعقول أن الله تعالى برحمته ولطفه ينزل الينا الكتاب، وهو يعلم اننا سنختلف في فهمه وتفسيره وتأويله، ومع ذلك لا يحدد لنا من هو القادر على حسم الخلاف فيه، وتمييز ما يتوافق مع مضمون القرآن الكريم عن ما يتنافى معه، وتفريق ما ينسجم مع حقيقته عما يختلف عنها؟

انه لا بد للقرآن الكريم في كل زمان من عالم بحقيقته، يكون قوله حقاً وحكمه فصلاً، ولقد كان الرسول (ص) في حياته من يقوم بهذا الدور؛ فهل تنتفي الحاجة الى هذا الدور بعد وفاته؟ أليست كثرة الاختلاف في فهم الكتاب بعد رسول الله (ص) دليلاً على ضرورة وجود القرآن الناطق والراسخين في العلم في كل زمان، وانه لا ينبغي أن يخلو منهم أوان؟ ألا يصح لأحد ما أن يسأل، أن قرآناً بهذه العظمة فيه تفصيل كل شيء وجعله الله تعالى تبياناً لكل شيء، هل يمكن أن ينزله الله تعالى علينا ثم يتركنا نتيه في فهمه، ونتخبط في تأويله، دون أن ينصب لنا علماً هادياً، يرشدنا دائماً الى معانيه الحقة ومفاهيمه الصحيحة، ونحن نحتاج الى بيان الكتاب في كل زمان، والى حسم الخلاف فيه في كل أوان؟

لا يمكن أن نتصور أن الله تعالى ينزل الكتاب رحمة بعباده، وبهدف رفع الاختلاف من بينهم، ثم يترك الكتاب نصاً قابلاً للاختلاف في فهمه وتفسيره، وتتكاثر أسباب الفرقة في حقيقة تأويله، دون أن يوجد لهم الوسيلة التي تحسم الخلاف. فهل يعقل أن الله تعالى يريد أن يغري عباده بالاختلاف، ويوقعهم فيه، في الوقت الذي ينهى عنه؛ يقول تعالى:" ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات"[1]؟ فكيف ينهانا عن الاختلاف ثم يوقعنا فيه؟ وكيف يأمرنا باجتنابه ويدفعنا اليه؟ وكيف يحذّرنا منه ولا يهدينا السبيل الذي يبعدنا عنه؟

ان حسم الاختلاف يحتاج الى مبيّن، يقول تعالى : "وما أنزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه"[2] فاذا كان الاختلاف يحتاج دائماً الى من يبيّن، ويفرق ببيانه بين الصحيح والسقيم، فمن يبيّن الاختلاف ويحسم القول فيه بعد رسول الله (ص)؟

أليست أسباب الاختلاف بعد وفاة رسول الله (ص) أكثر من أسباب الاختلاف في حياته، أليست مساحة الاختلاف بعد وفاته أوسع منها قبل مماته؟ فاذا كان الاختلاف يحتاج الى مبيّن للكتاب في حياة الرسول (ص) أليس من باب أولى انه يحتاج الى المبيّن بعد وفاته؟

لقد كان الرسول (ص) من يبيّن لأمته الاختلاف، ويفصل ببيانه بين الحق والباطل، فهل لم يعد الاختلاف موجوداً بعد رسول الله (ص)، لنقول انه لم تعد من حاجة الى مبيّن؟ أم هل يمكن القول ان الاختلاف الذي كان في حياة الرسول (ص) يحتاج الى مبيّن، أما الاختلاف الحاصل بعد وفاته (ص) فلا يحتاج الى مبيّن؟

ما ينبغي قوله ان الاختلاف الذي كان في عهد رسول الله (ص)، فانه بعد وفاته، قد زادت شقته، واتسعت رقعته، واشتدت وطأته، وان حاجة الاختلاف بعد رسول الله (ص) الى المبيّن والبيان ليست أقل من الحاجة اليه في حياته، ان لم نقل انها أشد حاجة. ويكفي أن نلقي نظرة على حال المسلمين بعد وفاته (ص) الى يومنا هذا، حتى ندرك مدى الحاجة الدائمة الى المبيّن المنصوب من الله تعالى، ليكون علماً هادياً في لجة الاختلاف. يقول تعالى "فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه"[3] ويقول عز شأنه مخاطباً رسوله "انما انت منذر ولكل قوم هاد"[4]، أي ان وظيفة هذا الهادي هي أن يبيّن بشكل دائم موارد الاختلاف، فيفرق ببيانه بين الحق والباطل.

---

1 سورة آل عمران، الآية 105.

2 سورة النحل، الآية 64.

3 سورة البقرة، الآية 213.

4 ان معنى أن يكون لكل قوم هاد هو استمرار الهداية الالهية من خلال وجود الحجة دائماً وأبداً حتى يهدي به الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه.

الدليل الثالث، طبيعة القرآن الكريم:

ان القرآن الكريم قد عنى بجميع الأمور التي ترتبط بهداية الانسان ونظم حياته في مختلف شؤونها؛ ولكن القرآن الكريم عندما عنى بتلك الأمور، فقد بيّنها اجمالاً على نحو كلّي، لم يتطرّق فيه بمجمله الى تفاصيل الأمور ودقائقها، ولذلك نجد أن القرآن الكريم قد استوعب كل تلك الأمور ولكن بطريقة العموم والاطلاق...أي من خلال تبيان الكليات، أما المصاديق والجزئيات والتفاصيل، فقد تركت اجمالاً للمبيّن الذي يكون بمثابة العدل للقرآن الكريم، بل يكون قرآناً ناطقاً ينطق عن علم بالكتاب، علمه ايّاه الله تعالى من لدنه "علمناه من لدنا علماً"[1].

نجد على سبيل المثال أن الله تعالى قد أمر بالصلاة في كتابه الكريم، فقال جلّ وعلا: "أقيموا الصلاة"[2]، ولكن تفاصيل الصلاة أخذناها من رسول الله (ص)، حيث قال (ص): "صلوا كما رأيتموني أصلي"[3]، وكذلك الأمر بالنسبة الى مجمل القضايا التي ترتبط بالشأن الديني، حيث بيّنها القرآن الكريم بنحو كلي، في حين أن تفاصيلها وجميع دقائقها نأخذها من القرآن الناطق، أي من المبيّن للكتاب.

وبما أن القرآن الكريم هو في مجمله كليات عنت بمختلف شؤون حياتنا، فمعنى ذلك أن نصاً هكذا طبيعته، سوف يكون نصاً قادراً على استيعاب مختلف أمورنا سواءً في الماضي أو الحاضر أو المستقبل؛ وهذا يعني أننا نحتاج دائماً الى تطبيق كليات القرآن الكريم على مفردات حياتنا في مختلف المجالات وفي جميع الأزمنة.

وهنا سوف يطرح سؤال وجيه وهو: هل يترك الأمر لجميع المسلمين بأن يطبقوا كليات القرآن الكريم على الجزئيات والمصاديق الموجودة، كل بحسب ما يراه، وكل فئة بحسب ما ترتأيه، مما يؤدي الى الاختلاف والتضارب في الآراء...أم لا بد من وجود مرجعية واحدة قادرة على حسن تطبيق كليات القرآن على مصاديقها، ومؤهلة للقيام بالتطبيق الصحيح لتلك الكليات على مفرداتها؟

لا شك أن الحكمة تقتضي وجود تلك المرجعية الواحدة، حتى يكون تطبيق تلك الكليات تطبيقاً واحداً، والا تعدّدت المذاهب وتشعّبت الآراء، وتفرّقت بنا السبل؛ وهذا – أي وجود المرجعية الواحدة– أمر عقلاني ليس خاصاً فقط بالمنطق الديني، أي ان عقلانية البشر تقتضي وجود هكذا مرجعية لحسم القول في تفسير

---

[1] سورة الكهف، الآية 65.
[2] سورة البقرة، الآية 43.
[3] المجلسي، مرآة العقول في شرح أخبار الرسول (ص)، ج12، ص111.

(أو تأويل) أي نص يعنى بتنظيم حياة المجتمع والأفراد وعلاقاتهم، بما في ذلك النص القرآني وقضية تطبيق كلياته على مصاديقه وجزئياته.

ان القرآن الكريم على هذا النحو الذي بيّنا، هو بمثابة الدستور للمسلمين الذي ينظم مختلف شؤون حياتهم، واذا كانت العقلائية المجتمعية قد اقتضت وجود مرجع دستوري واحد بمعية كل دستور، تكون وظيفته القيام بتفسير الدستور بما ينسجم مع روحه وحقيقته، وحسم أي خلاف قد يقع في فهمه وتفسيره؛ فان القرآن الكريم بما هو دستور المسلمين لا يشذ عن هذه القاعدة، لأن هذه السيرة التي اعتمدها البشر ليست سيرة خاصة بكون الدستور وضعياً، بل هي سيرة عقلائية تتجاوز مصدر الدستور في أن يكون الهياً أو وضعياً لتشملهما معاً. والسبب في ذلك أن طبيعة أي نص يعنى بتنظيم شؤون البشر، سوف يقتصر في مجمله على الكليات، ولن يتطرق بالاجمال الى التفاصيل والمصاديق.

وسوف يكون من المتوقع عندها أن يحصل اختلاف وتضارب بالآراء، عندما يُعمد الى تطبيق كليات ذلك النص (الدستور) على مصاديقه وجزئياته، وبما أن هذا الاختلاف هو أمر متوقع عند كل تطبيق لذلك النص (الدستور)، فسوف يكون أمراً في منتهى الحكمة والعقلائية أن تجعل مرجعية ما، تكون وظيفتها حسم الخلاف في تفسير الدستور، وتقديم تفسير واحد موحد له، حتى يكون تطبيق الدستور تطبيقاً موحداً في الاجتماع الانساني، والا لو ترك الأمر دون وجود هكذا مرجعية، فسوف تنتهي الأمور الى التشتت والفوضى، وحصول ما يسمى في الأدبيات الاسلامية بالهرج والمرج.

وما ينبغي التأكيد عليه هو أن الحاجة الى هكذا مرجعية هي حاجة دائمة وليست خاصة بزمن دون آخر، لأن تطبيق كليات القرآن الكريم على جزئياتها وبيان التفاصيل المتعلقة بها، ليست خاصة بزمن دون آخر. اذ ان الحياة الاجتماعية هي في طبيعتها حياة متغيرة ومتطورة، تستولد في كل زمان مسائل وقضايا تحتاج الى أن نرجعها الى القرآن الكريم، لتحديد كيفية التعامل معها والموقف منها. وكما توجد حاجة لإرجاع المسائل والقضايا الى القرآن الكريم في عهد رسول الله (ص)، فالحاجة هي نفسها لإرجاع تلك المسائل والقضايا الى القرآن الكريم بعد رسول الله (ص)، باعتبار أن الحياة الاجتماعية في حركتها لن تتوقف عن استيلاد مسائل وقضايا جديدة، تحتاج الى علاجها وتحديد الموقف منها.

ولقد كان رسول الله (ص) يتولى في حياته مهمة تطبيق كليات القرآن الكريم وبيان التفاصيل المتعلقة بجزئياتها. أي كان يمثّل المرجعية الدينية التي كان على جميع المسلمين العودة اليها في عملية التطبيق وبيان الدين، فهل نستطيع القول انه لم يعد القرآن الكريم في عصرنا –مثلاً– المصدر الذي يجب أن نعود اليه لتطبيق كلياته وبيان حقائقه؟ أم هل نستطيع القول ان الحياة الاجتماعية قد توقفت عن افراز الكثير

الكثير من القضايا التي تحتاج الى ارجاعها الى القرآن الكريم؟ فاذا كان القرآن الكريم هو المصدر الذي يجب أن نعود اليه دائماً لتطبيق كلياته، واذا كانت الحياة الاجتماعية تفرز لنا دائماً موارد ومصاديق تحتاج الى ارجاعها الى القرآن الكريم؛ بالتالي سوف يكون سؤالاً وجيهاً أن يقال:

من هي المرجعية التي على المسلمين العودة اليها بعد وفاة رسول الله (ص) للقيام بعملية التطبيق تلك لكليات القرآن الكريم، والتي يجب أن تتصف بأمرين:

1- أن تكون عملية تطبيق صحيحة، وبياناً واقعياً للدين، لا يفارق حقيقته وواقعه.

2- أن تكون عملية تطبيق واحدة، وذلك حتى لا تتشتت الآراء وتتشعب المسالك.

الدليل الرابع: حفظ الدين: أي ان الحفاظ على الدين من أية زيادة أو نقصان وما سوى ذلك، يتطلب وجود الأمين على الدين، العالم بحقيقته، كيما يعمل على حفظ الدين، والحفاظ على معانيه الصحيحة وقيمه الحقة وأهدافه الواقعية، من أن تتعرض للتبديل أو التشويه.

ان هذه الوظيفة هي على مقدار كبير من الأهمية والخطورة، لأنه فرق بين الدين عندما ينزل على قلب النبي (ص)، وبين الدين عندما يتموضع في الاجتماع البشري، فالدين عندما ينزل على قلب النبي (ص) يكون نقياً صافياً من أية شوائب أو اضافات، أما الدين عندما يتموضع في الاجتماع البشري، فسوف يعمل على تغيير هذا الاجتماع في قيمه وعلاقاته وقوانينه...مما يؤدي الى أن يصطدم هذا الدين بأهواء فئات من الناس ورغباتها ومصالحها، تلك الفئات التي تنتفع من الفساد أو الظلم في توزيع الامكانات والثروات، وبالتالي فهي لن تقبل أية محاولة لتغيير هذا الواقع الذي ترى نفسها منتفعة من بقائه على ما هو عليه، يقول تعالى: "ما أرسلنا في قرية من نذير الا قال مترفوها انّا بما أرسلتم به كافرون"[1] حيث للترف هنا مدخلية في رفض الرسالة الدينية وعدم القبول بها. وهنا سوف تعمل كل تلك الفئات المترفة على مواجهة الدين، ومحاولة كبحه عن تغيير الواقع واقامة قيمه العادلة ومفاهيمه الحقة... حتى اذا وجدت نفسها أنها لم تعد قادرة على مواجهة هذا الدين وجهاً لوجه وبشكل مباشر، فقد تلجأ الى أسلوب آخر من المواجهة، تعمد فيه الى النفاذ الى المجتمع الديني، ومحاولة تعطيل حركة الدين وأهدافه ومشروعه، لكن هذه المرة من الداخل ولربما بلباس ديني.

وهنا قد تتقاطع مصالح أكثر من فئة، وتجتمع عوامل عديدة على مشترك واحد، ألا وهو تشويه الحقيقة الدينية وقيمها وأهدافها، بما ينسجم مع أهواء تلك الفئات المترفة ومصالحها الخاصة؛ حيث سوف تعمل هذه

---

[1] سورة سبأ، الآية 34.

الفئات في الدين كتماناً وتبديلاً وتحريفاً، وبالاجمال سوف تعمل على تقديم فهم للدين ينسجم مع أهوائها وأهدافها الخاصة، وان كان هذا الفهم يجافي حقيقة الدين، ويتنافى مع قيمه، ويتعارض مع أهدافه الحقيقية ومعانيه الحقة.

ومحل الخطورة هو عندما يحصل هذا الأمر ضمن معطيات وفي ظروف تاريخية، تترك أثرها على مجمل الفهم الديني، أو على جوانب أساسية منه، وبطريقة لا تبقى نتائجها محصورة ضمن اطار محدود على المستوى الزمني ومضبوط على المستوى الاجتماعي، بل تنفلت اجتماعياً وزمانياً، بحيث يُعمل على اجترارها بشكل دائم وعلى أكثر من مستوى، حتى تصل الى مرحلة ترى فيها أن أكثر الناس تأخذ بذلك الفهم للدين، وهي تظن أنه الفهم الصحيح، والتفسير الذي ينسجم مع حقيقته وواقعه.

وتصبح الأمور أكثر خطورة وسلبية عندما يحصل ذلك التحالف بين بعض مراكز النفوذ من سلطة أو غيرها، وبين بعض العالمين بالدين، تحالف يقوم على تبادل المنافع بين المتحالفين، والذي تكون نتيجته ممارسة الكتمان أو التبديل، والعمل على تقديم فهم للدين ينسجم مع مصالح مراكز النفوذ تلك وأهوائها ورغباتها، وهو ما يقود الى تحريف الدين، وحرفه عن معانيه الحقة وأهدافه الحقيقية، ما يؤدي بالتالي الى اصابة الدين بكثير من الضياع والتشويه.

وهذا الأمر ليس عزيزاً في التاريخ الديني الذي يحفل في جميع مراحله بهذا المعطى، بل ان منطق التاريخ يقتضي أن يتحول الصراع بين الفئات الرافضة لدعوات الأنبياء والمشروع الديني الى صراع معرفي، تعمد فيه تلك الفئات الى محاولة الالتفاف على الدين وتجويفه من الداخل، بعد أن تعجز عن المواجهة المباشرة معه، ولذلك نرى ذلك التأكيد الكبير من القرآن الكريم على مفاهيم من قبيل تحريف الكتاب، كتمان ما أنزل الله تعالى، تبديل كلام الله تعالى...

يقول تعالى في كتابه الكريم:

"وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون"[1]، فلقد كان هناك فريق من الأمم السابقة يسمع كلام الله تعالى ويعقله، أي يعرفه على الوجه الذي أراده الله تعالى، ومع ذلك يقوم بتحريفه، وهو يعلم أنه يقوم بعملية تحريف تنافي ما يريده الله تعالى من معنى ودلالة.

يتحدث القرآن الكريم في بني اسرائيل، فيقول تعالى:

---

[1] البقرة: 75.

"فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه"[1]، والمراد بالميثاق ما أخذه الله تعالى على أهل الكتاب من بيان الكتاب وعدم كتمانه، اذ يقول تعالى "واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا

الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون"[2].

وعن اليهود يقول تعالى: "من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه"[3]، وعن الذين يتولون كتابة الكتاب وينسبونه الى الله تعالى، يقول تعالى: "فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً"[4]، حيث انهم ينسبون ما يكتبون من عند أنفسهم الى الله تعالى، ليدّعوا انه من عند الله تعالى، وما هو من عند الله تعالى.

كما يقول تعالى في موضوع كتمان ما أنزل من الكتاب: " ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم الا النار "[5].

ويقول تعالى في آية أخرى: "ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون"[6].

ويتحدث القرآن الكريم عن لبس الحق بالباطل فيقول مخاطباً أهل الكتاب: "لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون"[7]

فهنا تتحدث هذه الآيات عن كتمان الكتاب والبينات والهدى والحق، وأن أولئك الكاتمين كانوا يشترون بكتمانهم ثمناً قليلاً من منافع دنيوية ومصالح مادية. لكن نتيجة هذا الأمر وأضراره كانت كبيرة على الدين والكتاب.

كما يتحدث القرآن الكريم في طلب البعض من الرسول (ص) بأن يبدل القرآن، يقول تعالى:

"واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله"[8]. الى غير ذلك من الآيات التي تتحدث في الموضوع نفسه، والتي تؤكد في مجملها على ان أولئك الذين يرون في الدين وأهدافه

---

[1] المائدة: 46.
[2] آل عمران: 187.
[3] النساء: 46.
[4] البقرة: 79.
[5] البقرة: 174.
[6] البقرة: 159.
[7] آل عمران: 71.
[8] يونس: 15.

تهديداً لمصالحهم ومخالفة لأهوائهم ورغباتهم، سوف يعملون بكل امكاناتهم وطاقاتهم للتبديل في الدين وتشويه حقائقه، ومحاولة اختلاق فهم للدين ينسجم مع مصالحهم ويتماهى مع رغباتهم وأهوائهم. وهذه الفئات الرافضة لتطبيق الدين كما أنزله الله تعالى لها وجودها ومصالحها في جميع المجتمعات وفي كل المراحل التاريخية، ولا يقتصر وجودها على زمان دون آخر.

وعليه فانه من المنطقي جداً أن يكون هناك من لديه علم بحقيقة هذا الدين، وبالمضمون الحق للكتاب، والصحيح من فهمه وتفسيره، فيعمل على حفظ هذا الدين وحمايته وصونه من أي فهم يضر بحقيقته، أو أي تفسير يخرجه عن مقاصده، أو أي تأويل يبعده عن واقع ما أراده الله تعالى. ولربما يعمل البعض، بغير سوء نية، على تقديم فهم للكتاب يجافي حقيقة ما أنزله الله تعالى على رسوله، وما قصده في كتابه، ومع ذلك فانه سوف يصيب المعرفة الدينية بكثير من الضرر والتشويه.

ان اللطف الالهي الذي اقتضى انزال الكتب، وبعث الرسل لهداية الناس، هو نفسه يقتضي أن يعمل على ايجاد السبل الكفيلة بحفظ هذا الدين وصونه من أي تشويه أو تبديل، وهو لا يتم الا من خلال وجود العالم بحقيقة هذا الكتاب، القادر على معرفة ما يتطابق مع تلك الحقيقة وتمييزه عما يخالفها.

انه ليس من الحكمة بمكان أن ينزل الله تعالى الينا الكتاب وهو يعلم بوجود كل الأسباب التي تؤدي الى تحريف فهم الكتاب وممارسة التبديل فيه وتشويه معانيه...دون أن ينصب لنا علماً هادياً يعمل على الذود عن الفهم الصحيح لكتابه والمعرفة الحقة بدينه، ومواجهة أي محاولة تؤدي الى الاضرار بالمعرفة الدينية الصحيحة وما هو حق من الثقافة الدينية[1].

تحصيل واستنتاج:

بناءً على مجمل ما تقدّم، يمكن الوصول الى هذه المحصلة:

1- ان الدين يحتاج بشكل دائم الى مبيّن يعمل على بيان حقيقته، وحفظه وصونه، ورفع الاختلاف عن فهمه وتفسيره، ويحدد كيفية تطبيق كليات القرآن الكريم على جميع الموارد والمصاديق القائمة.

2- ان هذا المبيّن يجب أن يكون عالماً بحقيقة الكتاب وعلى دراية بمعانيه الصحيحة ومضامينه الحقّة، وقادراً على سبر أغواره، حتى يستطيع أن يقوم بكل تلك المهام المعرفية الملقاة على عاتقه.

---

[1] في دور الأئمة (ع) في الحفاظ على الدين انظر: الريشهري محمد، أهل البيت في القرآن والسنة، ط1، قم، مؤسسة دار الحديث الثقافية، 1375هـ ش، صص147-150.

3- ان العلم بحقيقة الكتاب ومضامينه الحقّة، انما يتأتى من خلال العلم اللدني لا الكسبي، ذلك العلم الذي لا يفارق الحق والصواب، في حين أن الكسبي هو بطبيعته عرضة للخطأ ومحاكاة الباطل.

4- ان العلم اللدني يختص به الله تعالى عباداً له، ليكونوا أئمة في الدين يهدون بأمره تعالى الى حقائق الدين والكتاب ومعانيه الحقّة ومضامينه الصحيحة.

5- ان لطف الله تعالى بعباده يقتضي دائماً اعلامهم بمن جعله الله تعالى سبب هداية لهم الى حقائق الدين ومعارف الكتاب، ليكون لهم قرآناً ناطقاً واماماً هادياً.

6- لقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم ان الرسول (ص) هو المبيّن للقرآن الكريم، فحدّد لهم من يعودون اليه ويأخذون منه في حياة النبي (ص) وهو النبي نفسه.

7- ان الله تعالى قد عيّن لنا من نعود اليه بعد وفاة الرسول (ص)، وهم أهل بيته والأئمة الهداة من ذريته، أولهم الامام علي (ع) يتلوه أحد عشر اماما من نسل فاطمة بنت رسول الله (ص)، حيث سُمّي كل باسمه وحدّد بشخصه، حتى يُعرف لِكل زمان امامه ويُعلم للكتاب بيانُه.

أما ما يمكن استنتاجه بناءً على ما تقدّم فهو ما يلي:

1- ان منطق الاجتماع المعرفي-الديني من حيث معالجة الاختلاف في المجتمع، والمنطق الديني- الاسلامي، تحديداً، في موضوع بيان الدين وتطبيقه؛ كل ذلك يقتضي وجود مرجعية معرفية-دينية بعد وفاة الرسول (ص)، تتولى كافة المهام ذات العلاقة بالمعرفة الدينية. وهو ما ينسجم أيضاً مع المنطق العقلائي البشري كما هو معمول به في البنى الدستورية.

ان ما تقدّم من منطق ديني اسلامي-اجتماعي ينسجم بشكل تام مع ما تراه مدرسة أهل البيت (ع) من أن الرسول (ص)، وبأمر من الله تعالى، قد عيّن الامام علي (ع) مرجعية من بعده تتولى تلك المهام ذات العلاقة بالدين والمعرفة الدينية. وهو ما دلّت عليه نصوص عديدة من قبيل قول الرسول (ص): "أعلم أمتي من بعدي علي بن أبي طالب"[1].

وعندما يُسأل الامام علي (ع) عن قوله تعالى:" فاسألوا أهل الذكر" يقول (ع): "والله انا لنحن أهل الذكر، نحن أهل العلم، ونحن معدن التأويل والتنزيل، ولقد سمعت رسول الله (ص) يقول : أنا مدينة العلم وعلي

[1] الريشهري، ميزان الحكمة، ط2، بيروت، مؤسسة دار الحديث، 1419هـ، ج1، ص 139-140.

بابها، فمن أراد العلم فليأته من بابه"[1]. وفي هذا المعنى توجد روايات كثيرة جداً تدل على المرجعية العلمية لأئمة أهل البيت (ع) بعد وفاة رسول الله (ص)[2].

2- ان ما ذكرنا من ضرورة وجود المرجعية الدينية المعرفية بعد وفاة الرسول (ص) هو تعبير عن الرؤية الدينية بضرورة استمرار الهداية الالهية على وجه البسيطة كما يقول الامام علي (ع): "اللهم بلى، لا تخلو الأرض من قائم لله بحجّة، اما ظاهراً مشهوراً، أو خائفاً مضموراً، لئلا تبطل حجج الله وبيناته..."[3].

كما ان ذلك لا يتنافى مع العقل البشري وأهمية دوره، لأن أطروحة الهداية الالهية لا تدعو الى الغاء العقل ودوره، وانما تدعو الى ان يقوم العقل بدوره من خلال اطر الهداية الالهية ومساراتها، فضلاً عن ان القبول بتلك الأطروحة يعتمد على ذلك العقل وفعله.

3- ان العديد من الباحثين والكتاب يثيرون الكثير من الأسئلة حول الاجتماع الاسلامي ومرجعيته المعرفية، وحول التاريخ الاسلامي، من حيث ان الادارة النبوية لمرحلة ما بعد وفاة النبي (ص) لم تأخذ بعين الاعتبار تلك العوامل التي تؤدي الى بروز الاختلاف في الاجتماع المعرفي الاسلامي، والتداعيات الخطيرة التي تترتب عليه، وضرورة أخذ الاجراءات الحكيمة لتجنبها[4]؛ والجواب ان ما ذكر من ان الرسول (ص) قد عين –وبأمر من الله تعالى- أهل بيته –وأولهم الامام علي (ع) وآخرهم الامام المهدي (ع)- ليكونوا المرجعية الدينية والعلمية التي يرجع اليها في معرفة الدين وحسم الخلاف فيه؛ يدحض كل تلك التساؤلات والاشكالات التي يراد البناء عليها للانتقاص من الادارة النبوية للمرحلة التي تلي وفاة النبي (ص)، أو ترتيب جملة من النتائج الأخرى التي ترتبط بالمعرفة الدينية أو الاجتماع السياسي الاسلامي وغير ذلك[5].

---

[1] الريشهري محمد، أهل البيت في الكتاب والسنة، ط1، م.س.، ص 144.

[2] انظر: الريشهري، محمد، أهل البيت في القرآن والسنة، م.س، صص177-232.

[3] نهج البلاغة، م.س.، ص 666.

[4] Blachère (R), Introduction au Coran, Paris, 1947, p16.؛ عن الحاج ساسي سالم، نقد الخطاب الاستشراقي، ط1، بيروت، دار المداد الاسلامي، 2002م، ج1، ص 320.

[5] يعرض عادل ضاهر في كتابه (الأسس الفلسفية العلمانية) لقضية المرجعية الدينية فيقول : ".. ان قراءة ما للقرآن_أي الفهم الخاص لجماعة ما لما يترتب على أيات وأحاديث معينة على المستوى السياسي-الاجتماعي-الاقتصادي، هو الذي يفرض نفسه على انه الاطار المرجعي الأخير لكل أفراد المجتمع. لقد نبهنا علي بن أبي طالب لهذه المسألة حين قال:"القرآن خط مسطور بين دفتين لا ينطق، وانما ينطق به الرجال"؛ والسؤال الآن هو : أي رجال؟..." (ط2، بيروت، دار الساقي، 1998م، ص 391).
ان هذا البحث كفيل بالاجابة على هذا السؤال، وهو ان الذي ينطق بالقرآن هو القرآن الناطق الذي يبين الكتاب، وهو محمد وأهل بيته، والأئمة المعصومين من ذريته صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.